أحاديث إصلاح القلوب

(١١)

إصلاح الخطرات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا؛ مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ**». متَّفق عليه(١).

إنَّ مبدأ أعمال المرء خيرِها وشرِّها، صالحها وفاسدها؛ من خطراتٍ تجول في قلبه، وخواطر تدور في نفسه، ثمَّ تتحوَّل تلك الخطرات إلى إراداتٍ وعزوم، ثمَّ تتحوَّل إلى أعمال؛ ولهذا مَن ضبط خواطر نفسه وخطراتها، وأحسن رعايتها، وكان بوَّابًا على قلبه يحوطه ويحرسه من خطرات وخواطر السُّوء، صدَّا لها وإبعادًا لها عن قلبه؛ سلِم قلبه مِنَ الهلكة والعطب، ومَن ترك خطرات السُّوء وخواطر الشَّرِّ تجول في قلبه وتتردَّد في نفسه، ثمَّ أخذ يستجلبها وينمِّيها في قلبه؛ تولَّد عنها شرٌّ عظيم وفسادٌ كبير.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا الخطرات فشأنها أصعب، فإنَّها مبدأ الخير والشَّرِّ، ومنها تتولَّد الإرادات والهمم والعزائم، فمَن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومَن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومَنِ استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردَّد على

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

القلب، حتَّى تصير مُنًى باطلة، ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النُّور:٣٩]»[(١)].

وأنفع ما يكون للعبد في هذا الباب: أن يحصر خواطر قلبه في أمور أربعة:

- خواطر يستجلب بها منافع دنياه.
- وخواطر يستدفع بها مضارَّ دنياه.
- وخواطر يستجلب بها منافع آخرته.
- وخواطر يستدفع بها مضارَّ آخرته.

فإذا حصرها في هذه الأربع أفلح وأنجح، وسعد في دنياه وأخراه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الاقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات -كتزاحم مُتَعَلَّقاتها- قدَّم الأهمَّ فالأهمَّ الَّذِي يخشى فوته، وأخَّر الَّذِي ليس بأهمَّ ولا يخاف فوته.

بقي قسمان آخران:

أحدهما: مُهِمٌّ لا يفوت.

والثَّاني: غير مُهِمٍّ، ولكنَّه يفوت.

ففي كُلٍّ منهما ما يدعو إلى تقديمه؛ فهنا يقع التَّردُّد والحيرة، فإن قدَّم

---

(١) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٥٤).

المُهِمَّ خشي فوات ما دونه، وإن قدَّم ما دونه فاته الاشتغال به عن المُهِمِّ، وكذلك يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما، ولا يحصل أحدهما إلَّا بتفويت الآخر.

فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة، ومن هاهنا ارتفع مَن ارتفع، وأنجح مَن أنجح، وخاب مَن خاب، فأكثر مَن ترى ممَّن يعظم عقله ومعرفته، يؤثر غير المُهِمِّ الَّذِي لا يفوت على المُهِمِّ الَّذِي يفوت، ولا تجد أحدًا يسلم من ذلك، ولكن مستقلٌّ ومستكثر.

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى الَّتِي عليها مدار الشَّرع والقدر، وإليها مرجع الخلق والأمر، وهي إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة الَّتِي هي دونها، والدُّخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها. فيُفَوِّت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها»[(١)].

وأعلى الخواطر وأنفع الفِكَر؛ ما كان لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والدَّار الآخرة، **وما كان كذلك ينحصر في أنواع:**

الأوَّل منها: فكرة في آيات الله المُنَزَّلة؛ كلامِه جَلَّ وَعَلَا، الَّذِي أنزله سبحانه هدًى للنَّاس وبيِّنات مِنَ الهدى والفرقان، أنزله هدايةً للعباد ورشادًا وفلاحًا

(١) الجواب الكافي (ص١٥٥).

وسعادةً في الدُّنيا والآخرة، والله عَزَّوَجَلَّ إنَّما أنزل هذا القرآن لتُتدبَّر آياتُه وليُهتدى بهداياته وليُعمل ببيِّناته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]؛ أنزله سبحانه لذلك، إلَّا أنَّ مِنَ النَّاس مَن جعل حظَّه من هذا القرآن مُجَرَّد التِّلاوة دون الفهم والعمل، قال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ؛ فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا**»(١).

الثَّاني: فكرة وتأمُّل في آيات الله المشهودة، ومخلوقاته العظيمة، وكونه الفسيح. فإنَّ هذا التَّأمُّل في هذه الكائنات، وهذه المخلوقات؛ يهدي قلب العبد إلى تعظيم مَن خلقها جلَّ في علاه، وتهدي قلب المُتَفكِّر إلى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبَّته، ورجائه، وخوفه، والعمل بما يرضيه جَلَّوَعَلَا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

الثَّالث: فكرةٌ وتفكُّرٌ في نِعم الله العظيمة، وآلائه الجسيمة، وعطاياه الَّتِي

---

(١) رواه الآجرِّيُّ في أخلاق أهل القرآن (٣٧)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١١٦).

لا تُعَدُّ ولا تحصى؛ فإذا شغل المرء فكره في ذلك تحوَّل إلى: عبدٍ شاكرٍ لِأَنْعُم الله، ذاكرٍ لله حامدٍ له، مثنٍ عليه جلَّ في علاه، والله جَلَّوَعَلَا لمَّا عدَّد نعمه العظيمة وآلاءه الكثيرة، في سورة النَّحل الَّتِي تُعْرَف بسورة النِّعم، قال في خاتمة عَدِّه لها: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النَّحل:٨١]، وهذا فيه إلماحةٌ وإشارة إلى أنَّ تبصُّر العبد وتفكُّره في نعم الله؛ يهديه إلى الإسلام لله، والخضوع له جلَّ في علاه.

والرَّابع من هذه الفكر: أن يتفكَّر المرء في عُيُوب نفسه، وتقصيره في حقِّ ربِّه، وتفريطه في جنب الله جلَّ في علاه، يتفكَّر في ذلك؛ فإذا أعمل فكره في ذلك أفضى به إلى كسر النَّفس الأمارة بالسُّوء، وأفضى أيضًا به إلى طرد العُجْب والغرور ونحو ذلك مِنَ القلب؛ ليتحوَّل إلى قلب منكسر خاضع لله جلَّ في علاه، مدركٍ تفريطه في حقِّ الله، مجتهدٍ في الوصول والبلوغ إلى مرضاة الله جلَّ في علاه.

الخامس من هذه الفكر النَّافعة: الفكرة في واجب الوقت وفريضته؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاس يسبح فكره في أمانٍ باطلة وتمنيَّاتٍ زائفة وينسى يومه، منهم مَن يُخَطِّط إلى أعمال تمتدُّ إلى عشرات السَّنوات، وهو مُضَيِّع لواجب اليوم وفريضته. وقد قيل -قديمًا-: «الإنسان ابن يومه»[(١)]؛ فيتفكَّر في عمل اليوم

(١) انظر: مقامات الحريريِّ (ص٢٥٠).

وواجبه، ويجمع همَّته وقلبه على ذلك: مجاهدًا نفسه على أن لا تغيب شمس يومه إلَّا وقد أدَّى واجب الله فيه، مبتعدًا فيه عن كُلِّ ما يُسْخط الله، ولا يزال كذلك مع كرِّ الأيَّام ومَرِّ الأوقات؛ فتكون الأيَّام تلو الأيَّام زيادة له في الرِّفعة والعُلُوِّ عند الله جلَّ في علاه، وتكون كذلك أيَّامه زيادةً له في كُلِّ خير ورفعة عند الله جَلَّوَعَلَا. وما سوى هذه الفكر، إنَّما هي وساوس في الصُّدور وأمانٍ باطلة وخدع كاذبة، لا ينال منها صاحبها نفعًا، بل هي وبال ومَضَرَّة عليه في دنياه وأخراه، أصلح الله قلوبنا أجمعين وزكَّى نفوسنا وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنَّ الخطرات والوساوس تؤدِّي مُتَعلَّقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤدِّيها إلى التَّذكُّر، فيأخذها الذِّكر فيؤدِّيها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوَّتها وتمامها. فإنَّها تهجم عليه هجوم النَّفس، إلَّا أنَّ قوَّة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه»[(١)].

قيل -لبعض الحكماء-: ما سبب الذَّنب؟ قال: الخطرة، فإن تداركْتَ الخطرة بالرُّجوع إلى الله؛ ذهبت، وإن لم تفعل تولَّدت عنها الفكرة، فإن

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص٢٥٤).

تدارَكْتَها بالرُّجوع إلى الله؛ بطلت، وإلَّا فعند ذلك تخالط الوسوسة الفكرة فتولد عنها الشَّهوة، وكُلُّ ذلك بَعْدُ باطنٌ في القلب لم يظهر على الجوارح، فإن استدرَكْتَ الشَّهوة وإلَّا تولَّد منها الطَّلب، فإن تداركْتَ الطَّلب وإلَّا تولَّد منه الفعل.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: كيف أقدر على دفع خطرات تخطر لا أملكها؟ فالجواب: أنَّها ما لم تكن عزمًا لا تضرُّ غير أنَّه لا ينبغي أن تؤخَّر بالخوف ممَّن يعلم ما تخفي الصُّدور لتشاغل القلب بوظائف بعيدة تلهيه عَنِ الأمر الَّذِي خلق له، ومتى كففت جوارحك، ولم تعزم على الخطايا بقلبك؛ فقد عفي لك عَنِ الوسواس والخواطر، فإذا زجرتها بالخوف فقد بالغت في النَّظافة»(١).

ومِنَ الدَّعوات المأثورة عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»(٢)؛ وفي هذه الدَّعوة سؤال الرَّبِّ جلَّ في علاه أن يُزَكِّي القلب وأن يُطَهِّره، وزكاة القلب وطهارته إنَّما تكون بسلامته من خواطر السُّوء، وخطرات الفساد، وإراداتِ الشَّرِّ، وهموم الباطل والسُّوء؛ فإذا سلِم القلب من ذلك وعُمِر بالطَّاعة والإيمان كان قلبًا

---

(١) ذمُّ الهوى لابن الجوزيِّ (ص١٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

زكيًّا طاهرًا نقيًّا، وهو النَّاجي يوم لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّما النَّجاة لمَن أتى الله بقلب سليم.

وهذا المقام يتطلَّب مِنَ العبد في تزكيته لقلبه وصيانته له، أن يكثر من دعاء الله؛ فإنَّ القلوب بيده جلَّ في علاه، وأن يجاهد نفسه؛ على صيانة القلب، ورعايته، وإصلاحه، وإبعاده عن كُلِّ ما يفسده. والقلب فساده مِنَ الواردات، وهي ترِد عليه؛ إمَّا من خلال السَّمع أو البصر، فإذا صان نفسه وكان بوَّابًا وحارسًا لها؛ حُفظت بإذن الله، والحافظ الله وحده جلَّ في علاه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أنَّ ورود الخاطر لا يضرُّ، وإنَّما يضرُّ استدعاؤه ومحادثته. فالخاطر كالمارِّ على الطَّريق، فإنْ لم تستدعِه وتركتَه مرَّ وانصرف عنك، وإن استدعيتَه سَحَرك بحديثه وخَدْعه وغروره. وهو أخفُّ شيء على النَّفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنَّفس الشَّريفة السَّماويَّة المطمئنَّة.

وقد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نفسًا أمَّارةً ونفسًا مطمئنَّة، وهما متعاديتان، فكلُّ ما خفَّ على هذه ثَقُل على هذه، وكلُّ ما التذَّت به هذه تألَّمت به الأخرى. فليس على النَّفس الأمَّارة أشقُّ مِنَ العملِ لله، وإيثارِ رضاه على هواها؛ وليس لها أنفعُ منه. وليس على النَّفس المطمئنَّة أشقُّ مِنَ العمل لغير الله، وإجابةِ داعي الهوى؛ وليس عليها أضرُّ منه. والملَك مع هذه

عن يَمنةِ القلب، والشَّيطان مع تلك عن يَسْرةِ القلب. والحروب مستمرَّة لا تضع أوزارها إلى أن تستوفي أجلَها مِنَ الدُّنيا. والباطل كلُّه يتحيَّز مع الشَّيطان والأمَّارة، والحقُّ كلُّه يتحيَّز مع الملَك والمطمئنَّة. والحروب دُوَل وسِجال، والنَّصر مع الصَّبر. ومَن صَبَر، وصابرَ، ورابَطَ، واتَّقى الله؛ فله العاقبة في الدُّنيا والآخرة. وقد حكم الله حكمًا لا يبدَّل أبدًا أنَّ العاقبة للتَّقوى، والعاقبة للمُتَّقين.

فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تُنْقَش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب، وغرور، وخدع، وأماني باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأيُّ حكمة وعلم وهدًى يَنتقش مع هذه النُّقوش؟ وإذا أراد أن يَنتقش ذلك في لوح قلبه؛ كان بمنزلة كتابة العلم النَّافع في محلٍّ مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإنْ لم يُفرَّغ القلبُ مِنَ الخواطر الرَّديَّة لم يستقرَّ فيه الخواطر النَّافعة»[(١)].

وأسأل الله أن يحفظ علينا قلوبنا وأسماعنا وأبصارنا، وأن يصلح لنا شأننا كُلَّه وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

---

(١) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٥٧).